الاقتصاد التطبيقي

قبل هذا كان الكنز قد أصدر كتابا مهما حول الاقتصاد الجزائري، تحت اسم مستعار -الطاهر بن حورية، هو اسم الحي الشعبي الذي عاش سنواته الأولى فيه بمدينة سكيكدة التي بقي متأثرا بلهجتها المعروفة –ـ رغم إقامته الطويلة بالعاصمة. تقرب واضح أنجزه هذا الأستاذ الجامعي الماركسي من الفكر السياسي الوطني الجذري ورجاله، الذي لم يكن بعيدا عنه كوسط اجتماعي بمدينته، بمناسبة التجربة التي قام بها مع أستاذ الأنثروبولوجيا بالجامعة الامريكية وزميله الجديد بجامعة الجزائر، الدكتور محفوظ بنون في كتابة «مذكرات عبد السلام بلعيد» وزير الصناعة خلال الفترة البومدينية، ورئيس الحكومة لاحقا -1992- صدرت في جزئين في الجزائر-1991- بعد الانفتاح السياسي الذي عرفه البلد عقب احداث أكتوبر، تجربة فكرية جعلت هذا الباحث الماركسي يعيد قراءة التجربة البومدينية، ويكتشف خباياها الداخلية وصراعاتها، وهو يقترب من أحد وجوهها الرئيسيين، عبد السلام بلعيد، أب التصنيع، كما كان يسمى ورئيس الحكومة والمناضل في صفوف الحركة الوطنية.
زاد التصاق علي الكنز بالبحث السوسيولوجي في هذه الفترة، عندما قرر الالتحاق بمركز الاقتصاد التطبيق للتنمية CREAD مدير بحث، في منتصف الثمانينيات، حيث سينطلق في تجربة بحثية جديدة، ستخرجه من محدودية الحالة الوطنية، للانفتاح اكثر على المنطقة العربية وافريقيا، من خلال تجربة الجمعية العربية لعلم الاجتماع، التي تعرّف اثناءها على الفكر السوسيولوجي العربي بمدارسه ورجاله والكوديسريا- مجلس تنمية البحوث الاجتماعية في افريقيا بدكار – التي وطد علاقته فيها مع المفكر المصري سمير أمين والحياة الجامعية والفكرية بافريقيا، عبرت عن نفسها من خلال الكتاب الجماعي الذي أشرف عليه «الجزائر والحداثة» الصادر عن المؤسسة البحثية الافريقية، وبحوث أخرى مع جامعات ومراكز بحث سويدية.
تجربة إنسانية وفكرية، ستقرب الكنز أكثر من كتابات المفكر الإيطالي انطونيو غرامشي بنزعتها التاريخية والثقافية، التي ساعدته على إعادة قراءة الماركسية التي تغلبت عليها نزعة ارو- مركزية واقتصادوية، اكتشف الكنز محدوديتها مبكرا، بتأثير من التجربة الوطنية الجزائرية في شقيها السياسي والتنموي الذي غاص في اعماقه. فرض العنف، على الكنز مغادرة بلده وهو في أوج عطائه الفكري – صيف 1993 بعد توسع الاغتيالات التي طالت محيطه القريب، كما حصل مع زميله جيلالي اليابس، للتوجه نحو تونس في البداية، قبل الاستقرار في نانت الفرنسية للتدريس في جامعتها، هجرة قسرية أثرت بشكل كبير في الباحث الذي فقد بلده وميدان بحثه.
لم تستهو الحياة الفكرية في هذه المدينة الجامعية، طموحات الباحث السوسيولوجي الدولي، باهتماماته الفكرية المتنوعة والواسعة التي توجهت خلال هذه الفترة صوب مجالات علم اجتماع المعرفة، قاد خلالها بحثا ميدانيا مقارنا واسعا، حول العلوم الاجتماعية في المنطقة العربية، سمحت له بالبقاء على علاقة بالعالم العربي الذي ارتبط به بشكل عاطفي كبير، بحوث مقارنة عرفته من جهة أخرى بالتجارب العلمية – الاجتماعية في الهند وامريكا اللاتينية، التي كان يطلب من طلبته الانفتاح عليها، بدل البقاء في العلاقة الأحادية، مع اوروبا الغربية وفرنسا. فرضت حالة إغلاق الحدود، دفن علي الكنز في نانت الفرنسية، هو الذي كان يفضل أن يدفن في مقبرة القبية بسكيكدة، بالقرب من قبر أمه، أو في مدينة الجزائر التي احبها وعاش فيها أحلى وأخصب أيامه، بالقرب من طلبته وزملائه، الذين أحبو ا فيه صفات الباحث الصارم والإنسان المتواضع، صاحب الثقافة الموسيقية الواسعة، الذي لم يمنعه ولعه بالجاز الأمريكي، الدندنة بأغنية البار اعمر، ياراس بنادم، في أوقات خلوته مع نفسه وحزنه الذي زاد منسوبه، بعد منفاه الذي لم يختره. كان المفكّر والباحث في علم الاجتماع  ظلّ حركة وطنيّة كانت في عزّ تمهيدها لثورة التّحرير، التّي شكّلت انقلابًا حقيقيًّا في الواقع والمخيال والوجدان الجماعيّين، ثمّ بدايات الاستقلال الوطنيّ الذّي شكّل تحدّيًا للذّات الوطنيّة الجزائريّة، فاختار الفلسفة ومن خلالها علمَ الاجتماع لمساعدة هذه الذّات على فهم سياقاتها الحضاريّة المختلفة، لأجل أن تربح تحدّي الاستقلال.

استطاع علي الكنز أن يلتقط بأدوات علم الاجتماع اللّصيق باللّحظة الشّعبيّة جملة من التّحوّلات التّي عرفها الشّارع الجزائري

كانت قناعة علي الكنز كبيرةً بالتّركيز على التّصنيع وجعله محور التّحديث الذّي تقوم عليه الجزائر المستقلّة، فكان من الأوائل الذّين تخصّصوا في علم الاجتماع الصّناعيّ وباشروا الكتابة فيه ووضع الأسس له.

اقرأ/ي أيضًا: [سؤال الحداثة بين الرّؤية الغربية والتلقّي العربي في الجزائر](https://ultraalgeria.ultrasawt.com/%D8%B3%D8%A4%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%91%D8%A4%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%84%D9%82%D9%91%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D8%A7%D8%A6%D8%B1/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A7-%D8%B5%D9%88%D8%AA/%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9-%D9%88%D9%81%D9%86%D9%88%D9%86)

.

برحيل الرّئيس هوّاري بومدين نهاية العقد السّابع من القرن العشرين، أي بعد أقلّ من عقدين من الاستقلال الوطنيّ، وجدت الجزائر نفسها مدعوّة من طرف نظام الشّاذلي بن جديد إلى نمط اقتصاديّ مختلف، وفق نظرة غير مدروسة؛ ممّا استفزّ قلم علي الكنز، فنشر كتابه "حول الأزمة" المتكوّن من بحوث ودراسات كان قد نشرها في منابر مختلفة.

لم تكن تلك المداخلات سوى نواقيسَ دقّها الكنز الذّي كان مهووسًا، رفقة باحثين آخرين، بالتّمكين لمدرسة جزائريّة في علم الاجتماع، قصد التّنبيه إلى جملة الانزالاقات التّي كانت اللّحظة الجزائريّة مقبلة عليها، بفعل إرث بومديينيّ منغلق على غير بصيرة وخيارات جديدة على غير دراسة، فكان الكتاب في حكم البيان الذّي شكّل أرضيّة معرفيّة لفهم واقع وتطلّعات الاقتصاد الجزائريّ.

استطاع علي الكنز أن يلتقط بأدوات علم الاجتماع اللّصيق باللّحظة الشّعبيّة جملة من التّحوّلات التّي عرفها الشّارع الجزائري، بعد عقدين من الاستقلال، وعزم على أن يكون قريبًا منها، من خلال اللّغة باعتبارها أداةً للفهم، فانتقل إلى مصر لأجل تعلّم اللّغة العربيّة ورصدٍ أكثرَ لموروثات الثّقافة والحضارة العربيّتين، فشكّلت تلك التّجربة نقلةً واضحة في مساره الفكريّ. حيث ساهم عربيًّا في تأسيس الجمعيّة العربيّة لعلم الاجتماع وجزائريًّا في تأسيس الجمعيّة الثّقافيّة الجاحظيّة التيّ رأسها صديقه الرّوائيّ الطّاهر وطّار، وشكّلت لحظة تأسيسها محاولةً فارقةً لجمع كلمة المثقّفين الجزائريّين معرّبين ومفرنسين.

تجاوز علي الكنز بحسّه الثّقافيّ والوطنيّ فخّ اللّغة وما ترتّب عنه من تشرذم وصراعات بين النّخب الجزائريّة، وراح يركّز على الجوهر المعرفيّ القادر على رفد اللّحظة الوطنيّة بما تحتاجه من مقولات تنسجم مع تحوّلاتها وتحدّياتها، فبات وجيهًا لدى الطّرفين.

وكان إشرافه على[سلسلة "الأنيس"](http://www.elwatandz.com/culture/28004.html) ذا جدوى كبيرةٍ في تشكيل وعيٍ معرفيٍّ وحضاريٍّ في مشهد جزائري غارق في تجربة عنف وإرهاب طالع باسم الهوّية، ذلك أنّ السّلسلة استدعت نصوصًا مركزيّة عربيّةً وإنسانيّةً مشفوعةً بمقدّمات وضعها باحثون ومفكّرون وجامعيّون كان هو واحدًا منهم.

جعل هذا المسعى الفكريّ المضادّ لمسعى الجماعات المسلّحة، علي الكنز في مهبّ التّهديد الفعليّ، وهو التّهديد الذّي مسّ فعليًّا نخبة وازنة فوجد نفسه مضطرًّا إلى الهجرة إلى فرنسا ثم تونس ثم العودة إلى فرنسا مرّة أخرى ليكون أستاذًا في جامعاتها.

يتحدّث الكاتب والباحث قلّولي بن سعد عن كتاب علي الكنز "خمس دراسات حول الجزائر والعالم العربيّ"؛ فيقول إنّه يتناول ظاهرة ذيليّة المثقّف وتبعيته للسّياسيّ، رابطًا هذه الهامشيّة بأصولها التّاريخيّة وبالضّبط إلى لحظة تشكّل الوعي الوطني المقاوم للكولونياليّة الفرنسيّة، التّي تخلّف فيها المثقّفون عن الالتحاق بصفوف الحركة الوطنيّة أو التحقوا متأخّرين جدًّا.

 "سجّل علي الكنز أنّ الحركة الوطنيّة عمليًّا نشأت وترعرعت من دون مشاركة المثقّفين. وبعد التحاقهم بها لم يتمكّنوا من التّأثير فيها لا من حيث المحتوى ولا من حيث التّطوّر، فأصبحوا عبارة عن بيادق بين أيدي رجال الحركة الوطنية الرّافضين لقواعد اللّعبة".

ويتدارك بالقول: "بالطّبع لا يقلّل علي الكنز من الأدوار النّضاليّة لبعض الوجوه على غرار فرحات عبّاس وعبّان رمضان ومصطفى الأشرف والدّكتور لمين دباغين الذّي يعتبره المؤرّخ الجزائريّ محفوظ قدّاش منظّر حزب الشّعب".

وربّما لم يتسنَّ لعلي الكنز؛ يقول قلّولي بن سعد، أن يدرس ويحلّل مآلات هذه الذّيليّة، عندما تكون بين المثقّف وزميله المثقّف، فتأخذ ألوانًا مختلفة من التّبعيّة المذلّة الأشبه بما سماه إيتيان دي لا بويسيه "العبودية المختارة".